الفن و العمارة في مملكة مالي الإسلامية

د. نور الدين شعباني، جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة
أ. زينب جعني، جامعة غرداية

الملخص:

ارتبط الفن و العمارة في بلاد السودان بتاريخ الشعوب و حضاراتهم منذ ظهور الممالك الوثنية القديمة ، لكن بانتقال الإسلام الى هذه الديار بدأت تظهر نماذج من الفن ذات الخصائص الإسلامية. ومن النماذج التي جسدت الفن السوداني الأصيل و عمارته مملكة مالي الإسلامية التي كانت تتميز بطابعها الفني من خلال اهتمامها بالإنشاد و العروض المسرحية التي جسدتها الاحتفالات الرسمية ، كما عرفت ملوكا اهتموا كثيرا بالحضارة العربية الاسلامية خاصة جانبها المعماري؛ حيث قام الإمبراطور منسا موسى بجلب مهندس أندلسي لما عاد من الحج، فجسد له ثورة عمرانية من خلال التأسيس للعمارة السودانية عن طريق بناء المساجد الموجودة في جاو وجني، و قصر الإمبراطور.

و بذلك أصبحت بلاد السودان معروفة بطرازها المعماري السوداني الذي يتميز بالمزج بين خصائص العمارة المغربية و السودانية.

Le résumé

L'art et l'architecture constitue un élément primordial dans l'histoire des pays soudanaises et leur civilisations, et cela depuis les anciens civilisations païennes. parmi les royaumes africaines qui ont beaucoup contribués a la vie artistique des africains il ya le royaume du mali que son empereurs Mansa moussa a ramené un architecte Andalou lors sont retour des pays saints, il a fondé une vrais révolution dans l'architecture Africaine, il a fait un excellent mixage entre l'architecture Magrébine et Africaine

مقدمة:

إنّ انتشار الإسلام في إفريقيا السوداء فيما وراء الصحراء ، لم يكتف بنقل عقيدة التوحيد إلى تلك الشعوب التي كانت بعيدة عن المؤثرات الحضارية القادمة من الشواطئ الشمالية للصحراء ، بل تعداه إلى نقل جميع مظاهر الحضارة العربية الاسلامية التي شهدها في العالم الاسلامي خلال فترة مجده الأول.

و لعل أبرز هذه المعالم الحضارية التي أصبحت تشكل جزءا من التراث الفني الإسلامي الإفريقي هو ميدان الفن و العمارة. صحيح أنّ لإفريقيا السوداء تراثا معماريا و فنيا أصيلا تميزت به حضاراتها و ممالكها عبر القرون الطويلة قبل احتكاكها بالإنسان الأبيض، لكن الدراسات تؤكد أنّ العمارة السودانية عموما تميزت بطابعها البسيط ، رغم أنّ بعض الروايات الشفوية تؤكد وجود عمارات ذات تسعة طوابق في مملكة الصوصو خلال القرن الثاني عشر و الثالث عشر للميلاد دون أن يتم التوصل إلى إثبات ذلك عبر الدراسات الأثرية.

لهذا سنحاول من خلال هذه الدراسة إبراز مدى تأثر الفن و العمارة في مملكة مالي بالفنون الإسلامية خلال الفترة الممتدة بين القرنين الثالث عشر و الخامس عشر للميلاد.

1- الفنون و الموسيقى في مملكة مالي:

لقد كان ملوك مالي و أمراؤهم كثيري الشبه بملوك المسلمين وملوك الشرق عامة من خلال ولعهم بالفن واكتسابهم لذوق جمالي رفيع. حيث كان ملوكهم يستقبلون سفراءهم في قصورهم أين كانت تقام حفلات كبيرة ، فكان كل وفد من وفود ولاياته يأتي بنموذج فلكلوري خاص بمنطقته من أجل تسلية الملك ، حيث كانت هذه الاستعراضات تعرف باسم كوتيبا (Koteba)، وما يزال هذا التقليد قائما إلى غاية اليوم في مدينة كيلا.

وتقام خلال هذه الاحتفالات التي تعد التسلية المفضلة بالنسبة لملوك مالي ألعاب بهلوانية تجسد دور الصياد الفاشل، أوخلافات الزوج مع زوجاته ومختلف مظاهر الحياة اليومية. كما تنشد بعض الأناشيد التي ظهرت في عهد والدة منسا موسى وهي نانا كونكو.[1] صحيح أن هذه التقاليد الاحتفالية وجدت قبل وصول عائلة كيتا إلى الحكم، وربما قبل تأسيس دولة مالي، لكنها استمرت في عهد ملوك مالي وخاصة عهد منسا موسى وأخيه سليمان ، حيث وصف ابن فضل الله العمري جانبا من هذه الاحتفالات التي كانت تقام في مجلس منسا موسى، عندما يقول:" وبين يديه (أي منسا موسى) أناس يرقصون وهو يتفرج عليهم ويضحك منهم".[2] كما ذكر ابن بطوطة جانبا من هذه الاحتفالات التي كانت تقام في يوم العيد.[3]

أما الموسيقى فقد كانت من أهم الفنون التي ارتبطت بالحياة داخل القصر الملكي لمملكة مالي، وقد ظهرت لأول مرة في عهد سوندياتا كيتا وما زالت قائمة إلى اليوم ، وهي ترافق الأناشيد والملاحم التي تروي أمجاد العائلة الملكة خلال المناسبات ، تتخللها الأساطير المعروفة بالجيلي[4]، وكانت تعزف هذه الموسيقى عن طريق آلة الكورا(La kora) وهي قيثارة صغيرة ذات طابع إفريقي.[5] وقد ظهرت آلة الكورا سنة 1235م، حيث اكتشفت من طرف القائد العسكري لسوندياتا و هو تيراماغان تراوري عندما كان في كهوف كنسالة المتواجدة في مملكة كابو(غمبيا الحالية) خلال غزوه للغرب، وتحتوي على واحد وعشرين وترا، وكل وتر له دور معين، وفي مقبضها تسعة ثقوب مفتوحة إلى الخارج، أما الخشب المركزي فهو يمثل العمود الفقري لها. [6]

كما عرفت الساحة الفنية لقصور مملكة مالي آلات موسيقية أخرى مثل البلافون (Balafon) البولون (Bolon) والسمبي (Simby) وعرفت

إمبراطورية مالي الملاحم الخاصة بمؤسس دولتهم الأول سونديانا كأهم الفنون الموسيقية ، وتعرف باسم سونجاتا فاسا (Soundjata fassa) وهي سنفونية موسيقية خاصة بكل أبطال معركة كيرينا، حيث تم إنشاء ما يعرف ببالا فاسيكي (Balla Fasseke)، وهي الفرقة الموسيقية التي تمثل الراوي الشخصي والرسمي للإمبراطور سونديانا، وتتفرع إلى ثلاثة طبوع أو مواضيع هي:

– دياندیون(Diandion): وتروي أمجاد القائد فاكولي ابن أخت سومنغورو الذي انضم إلى قوات سونديانا، وغزا بلاد الجولوف، وهي تعد تراثا محفوظا بالنسبة لأحفاده.

– بولوبا(Boloba): وهي الموسيقى الخاصة بسومنغور كانتي، وقد ظهرت بعد معركة كيرينا، وأقرها سونديانا كنشيد وطني لكل الماندينغ.

– دوغا(Douga): وهي أغنية المحاربين والموسيقى الخاصة بهم، تنشد خلال المعارك [7]. ولقد أفادنا ابن بطوطة بجانب من هذه الاستعراضات التي كانت تعزف في قصر الملك منسا سليمان، فذكر آلة الطرب التي تصنع من قصب القرع وقال إنّ لها صوتا عجيبا، والتي قد تكون آلة الكورا التي تحدثت عنها الروايات الشفوية، خاصة أنه ذكر الغناء الذي يصاحبها خلال احتفالات يوم العيد، أين كانت تتضمن هذه الأغاني مدح السلطان وذكر غزواته وأفعاله وتغني معه النساء والجواري،كما ذكر ضرب الطبول والأبواق والأنفار.[8]

2– العمران في مملكة مالي:

استطاع ملوك مالي ترك بصماتهم ولمساتهم الفنية في المجال العمراني، حيث تميزوا عن غيرهم من ملوك الإسلام وملوك إفريقيا في هذا المجال، فتمكنوا من وضع أسس الفن المعماري السوداني، وهو الفن الذي يجمع بين الطراز الإسلامي ويحتفظ بالخصوصيات الإفريقية.

فالطراز المعماري السوداني القديم كان بسيطا تميزه البناية ذات السقف المستدير، وذات الشكل الهرمي المغطى بالقش، أما الحيطان فكانت تُبنى بالطوب ونادرا ما كانت تتخللها الحجارة ، و توجد بالقرب من البيت زريبة لتربية الماشية.[9] فكانت العاصمة نياني في عهد سونديانا كيتا مبنية مساكنها بالطين وأسقفها مصنوعة من القصب.[10] وحتى مدينة تمبكتو كانت في البداية مبنية بعيدان الأشجار وحشائش النباتات، وفي مراحل أخرى من تاريخها قبل أن يحكمها منسا موسى كانت تبنى من شجر الصيان وهو نوع من الأشجار ذات الجذوع الغليظة، أو مبنية بأوتاد مخلوطة بالطين ومسقوفة بالتبن.[11] لكن بوصول منسا إلى الحكم أحدث ثورة حقيقية في المجال العمراني المندي خاصة والسوداني عامة، فخلال تواجده بمكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة 1324م، تعرف على مهندس وشاعر أندلسي هو أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجن[12]، فاصطحبه معه إلى مالي، فقام هذا الأخير الذي كان بارعا في الهندسة والتصميم بإحداث ثورة في الطراز المعماري السوداني.[13] وكان مع الوفد المرافق لمنسا موسى خلال عودته من الحج شخص يدعى المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومي الصنهاجي، وهو أمير من ولد عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين، كان قد التقاه في طريق عودته من الحج، بمدينة غدامس[14] وعند مرورهم بمدينة غاو عاصمة سنغاي التي أصبحت تابعة لإمبراطورية مالي، أبدى المعمر اندهاشه لوضعية مسجدها المتردية، والتي كانت تشبه كل منازل البلد في تلك الفترة والمتمثلة في كوخ سقفه من القش،[15] لذلك نبه منسا موسى إلى أن هذه البناية لا ترقى لمكان يعبد فيه الله، ولا ترقى إلى مقام الإمبراطور، ذلك أن الطراز المعماري السوداني البسيط كان ما يزال يطغى على بنايات ومساجد المملكة، فالمساجد كانت قليلة ولا توجد في كل مكان، وتفتقد إلى اللمسات الفنية للعمارة، فأغلب أمكنة الصلاة بمدن المملكة عبارة عن مربعات أو دوائر رملية

تفصل الطريق العمومي بإطار من الحجارة، وتدعى (باتوما)، وكانت هناك مصليات تأخذ شكل كوخ كبير من القش [16]. وطلب هذا الأمير الموحدي من أبي إسحاق الساحلي بناء جامع أكثر رخاء ورونقا، فطلب هذا الأخير بأن يحضروا له المواد والسلع والأيدي العاملة التي يتطلبها هذا الإنجاز، فقام ببناء أول مسجد بالطين في غاو ذا سقف يحتوي على سطح ومنارة ذات شكل هرمي، وهو محراب مبني بالآجر والطين المشوي بالنار، وأحزمة ظاهرة أصبحت متواجدة أينما وجد المسلمون في السودان.[17]

و بهذا ظهر طراز معماري جديد عرفت مالي من خلاله بناء المساجد الأنيقة التي تذكرنا بتلك الموجودة في الجنوب الجزائري والمغربي، والقصور والمنازل التي كانت مأوى قادة البربر في جبال الأطلس. فهذا الطابع المعماري الذي جسده الساحلي ظهر جليا مع بناء القبة المربعة الشكل بالقصر الملكي بمدينة نياني عاصمة مالي. كما كان القصر الملكي لعائلة كيتا مكونا من مجموعة من المنازل دائرية الشكل مرتبطة ببعضها البعض عن طريق سور للدعم، وكلها تؤدي إلى ناحية الجنوب أين توجد ساحة عمومية كبيرة، وهي المكان الذي كان يستقبل فيه الملك رعيته، كما توجد قاعة أخرى ذات شكل مثلثي وهي خاصة باستقبالات الملك الخاصة، وهي القاعة التي أضافها المهندس أبو الساحلي والبناية الوحيدة المبنية بالحجارة، عكس البنايات الأخرى التي كانت مبنية بالطين.[18]

ولعل أهم ما أبهر الماليين والمؤرخين العرب الذين كتبوا عن الموضوع هو تلك القبة المربعة الشكل التي غطت قصر منسا موسى، والتي أظهر فيها أبو إسحاق الساحلي كل موهبته وإجادته، حيث زينها بالكلس وأنواع الأصباغ المشبعة، والنقوش والتخريم، فكانت من أجمل المباني التي بنيت في مالي وأتقنها، ونالت دهشة منسا موسى واستغرابه ، حيث لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن

من قبل، لذلك كافأ مهندسه باثني عشر ألف مثقال من التبر (الذهب المسحوق) بالإضافة إلى هدايا أخرى.[19]

ومن خلال الدراسة التي أجراها الدكتور صالح بن قربة فإنّ أوصاف هذه القبة تعبر عن ميلاد نموذج جديد لطابع العمارة المغربية التي اشتهرت بقبابها ومآذنها المربعة في عهد الزيانيين والمرينيين خاصة، إذ كانت فاس والأندلس خلال العهد المريني تتخذ قبابها شكلا مربعا، و تحتوي على زخارف، والتي لم تكن موجودة من قبل في المغرب[20] ، ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى التأثير الذي تركه هذا المهندس المعماري الأندلسي الذي حل بفاس وعاش بالأندلس، والذي حمل فنه معه إلى بلاد السودان،و بالتالي عرفت مالي الفن الإسلامي من باب العمارة.

لما رأى منسا موسى إنجاز الساحلي في غاو، طلب منه إعادة إنجاز مثل هذا الإبداع في مدينة تمبكتو التي كانت مجرد مخيم بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن 5هـ/11م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء ، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية 8هـ /14م[21]. فقام أبو إسحاق الساحلي بعمل كبير في هذه المدينة التي سوف تصبح بفضله أشهر مدينة في السودان الغربي، فأعاد بناء المسجد القديم لتمبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمالي، وبنى في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك[22]،فأقام له صومعة من خمسة صفوف والقبور لاصقة بها من خارجها في جهة اليمين.[23]

إنّ المقارنة الميدانية للعمارة الإسلامية يقودنا إلى الاعتقاد بأن هذا المهندس الأندلسي يكون قد نقل هذا النموذج المعماري عن المغاربة الذين كانوا يقيمون القبور بالقرب من المساجد أو بداخلها خاصة أضرحة العلماء والصالحين.[24] وقد أطلق على هذا المسجد الكبير فيما بعد اسم جنجير بر(أي المسجد الكبير)،

وظل قائما لمدة ثلاثة قرون، وماتزال بعض أسسه قائمة إلى غاية الوقت الحاضر بمدينة تمبكتو.[25] حيث لخص فيه أبو إسحاق الساحلي الطراز السوداني في العمارة، كما بنى الإقامة الملكية المعروفة بالمادوغو (Madougou) وتعني أرض السيد في أقصى شمال غرب تمبكتو، بالإضافة إلى بنائه لأسوار المدينة التي يبدو أنها بنيت من أجل حمايتها بعد تعرضها لهجمات الموشي. [26]وزود وسط مدينة تمبكتو بساحة كبيرة لم يعرف السودان الغربي لها مثيلا [27]، مما يؤكد أصالة العمارة التي أدخلها منسا موسى وحداثتها بالنسبة للسودان الغربي. وازداد اهتمامه بعد ذلك ببناء المساجد، وخاصة بعد حجه،حيث أنشأ خلال سفره إلى الحجاز مسجدا في كل مدينة مر بها من مدن السودان، منها مسجد تمبكتو الذي ذكرناه، ومسجد دوكوري،كوندام، ديري، وانكو ومسجد باكو.[28]

أ– مدينة جني نموذج العمارة السوداني:

لقد اعتنى ملك مالي منسا موسى كثيرا بمدينة جني التي تعد العاصمة الثقافية الثانية بعد تنبكتو لمملكة مالي، فبذل مجهودات كبيرة لتطوير الجانب العمراني لهذه المدينة الواقعة عند منعطف النيجر، والتي كان أهلها ينتمون حسب التقسيم الطائفي الذي وضعه سونديانا إلى طبقة الحرفيين ، فكانت تعج بالبنائين الذين أتقنوا عملية البناء المعروفة بالبانكو(Banco) باحترافية كبيرة[29].

كما ظهر خلال هذه الفترة مهندس مغربي آخر هو معلوم إدريس المراكشي الذي عاصر أبا إسحاق الساحلي[30] فأوكل له منسا موسى مهمة بناء مدينة جني[31]، وبالتالي يكون قد أضاف لها اللمسة المغربية للعمارة السودانية التي بدأها المهندس الغرناطي، فامتزجت في جني عبقرية تصميم إدريس المراكشي مع احترافية بنائي جني، لذلك تميزت بنايات جني بالأناقة والجمال والإتقان، إذ

تكونت المنازل فيها من طابق أول مؤلف من عدة أروقة، تحتوي على مخادع صغيرة أين يوضع فيها الماء داخل جرات من الطين، وساحة صغيرة ، أما الطابق الأرضي فإنه موزع بنفس الطريقة، ويستعمل كمخزن لحفظ الأرز والذرة البيضاء، كما يستخدم كإسطبل للحيوانات. وهذا المخزن يؤدي إلى ساحة أخرى توجد خلف المنزل، ويتم الصعود من الطابق الأرضي إلى العلوي عن طريق سُلَّمين واحد منهما يوجد عند المدخل والآخر في الساحة بالداخل. أما السقف فكان مغطى بقطع خشبية متباعدة عن بعضها بمسافات معينة ويغطيها الطين لتشكل سطحا صغيرا محاطا بحاجز مرتفع قليلا، ويتم الصعود إلى هذا السطح عن طريق سلم من عشر درجات.[32]

وبالإضافة إلى المنازل قام إدريس المراكشي ببناء الجامع الكبير بمدينة جني، الذي يمثل نموذجا حقيقيا للتمازج المعماري السوداني مع العمارة المغربية.[33] أمّا عهد منسا سليمان فكان زاخرا بالانجازات العمرانية، حيث بنى المساجد العادية والمساجد الكبيرة، ورفع المآذن، و كان حريصا على صلاة الجماعة في المساجد وجعلها فرضا على الناس، حيث ذكر ابن بطوطة بأنّه في عصر هذا الملك كان الناس مواظبين على الصلوات وملتزمين بأدائها جماعة، حتى إذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام.[34] مما تطلب بناء المزيد من المساجد، كما وسع مدينة نياني العاصمة إلى أن أصبحت مساحتها تبلغ حوالي بريد طولا وعرضا،[35] وجعل بناياتها مكونة من طبقات من الطين تشبه أسوار وحدائق دمشق، وسقفها يتخذ شكل قبة أو سنام جمل.[36]

وعموما فإن الجهود التي بذلها الملك منسا موسى، بجلب هذا المهندس الأندلسي والذي كان بمثابة وزيرا للعمران والفنون الجميلة حسب دولافوس ومورايس،[37] قد أفرزت طرازا معماريا يوافق بين الطراز المغربي الموريسكي مع شكل العمارة

السودانية البسيطة، وبالتالي ظهر مصطلح ما يعرف بالفن المعماري السوداني الذي اقترن بمنسا موسى ومهندسه الأندلسي، وهو في الحقيقة ليس طرازا سودانيا خالصا وإنما يستمد خصائصه من الحضارات المتوسطية القديمة والوسطى والذي ما يزال موجودا في جنوب الصحراء الغربية وجنوب المغرب الأقصى. (38)

3- جحود المؤرخين الغربيين:

إنّ بعض المؤرخين الغربيين والمستشرقين لا يريدون الاعتراف بدور الساحلي في العمارة السودانية، وينكرون وجود ذلك الأثر المغربي فيها، ومنهم من يعتبر شخصية أبي إسحاق الساحلي شخصية وهمية ، في محاولة لنفي أي تأثير عربي إسلامي في العمارة السودانية. فالأستاذة سوزان أراديون (Suzan Aradeon) تذكر أنّ أبا إسحاق الساحلي هو مجرد أسطورة من وحي خيال المصادر التاريخية العربية التي اخترعتها، وانتشرت بعد ذلك عند الأوربيين. وتقول إنّه من يقول بوجود الأثر المغربي فهو جاهل بخصائص العمارة السودانية، وهي بذلك تحاول إقناعنا أنها تريد الدفاع عن أصالة الفن المعماري السوداني، وتتهم هذه المصادر العربية بأنها تسعى إلى إثبات عجز السودانيين على بناء شيء غير الأكواخ الصغيرة.(39) لكنّها في المقابل لم تقدم لنا ولا دليلا مقنعا عن ادعائها سوى ذكر آراء المؤرخين الأوربيين الذين شكّكوا في دور الساحلي. فهي تستشهد بكلام شارل مونتاي (Charles Monteil) ، لكن هذا الأخير لا ينكر وجود شخصية الساحلي، ولا ينفي ما قام به،إلاّ أنّه ينسب للساحلي بناية واحدة وهي قاعة الاستقبالات في العاصمة نياني،(40) كما تستشهد بما كتبه الدكتور الألماني هنري بارث (Henri Barth) وتقول إنّه يشكك في أسطورة الساحلي، لكننا نعتقد بأنها أوّلت خطأ كلام بارث بما يدعم فكرتها المسبقة، حيث لو رجعنا إلى ما قاله الدكتور الألماني فنجد ما يلي.:" إن تمبكتو التي يبدو

أنها استسلمت بدون مقاومة للفاتح (أي منسا موسى) تحولت إلى عاصمة لإمارة ذات عظمة ومكانة، لأن الزعيم الجديد، وهو رجل حيوي وصديق للفنون زوّد المدينة بمسجد وقصر جديد".[41]

فالجغرافي الألماني هنري بارث لم ينف ولم يشكك في شخصية الساحلي كما تدعيه الأستاذة أراديون، بل لم يذكرها أصلا، ولكنه ينسب بناء المسجد والقصر في تمبكتو لمنسا موسى على أساس أنه هو الإمبراطور صاحب الأمر والنهي، وصاحب السلطة التنفيذية في مالي، فلم يذكر من نفذ أوامره بالبناء، لكنه في المقابل نرى هناك تطابق كبير مع ما ذكره السعدي الذي يقول بأن منسا موسى بنى مسجد وقصر تمبكتو بعد ضمها إلى مملكته عند عودته من الحج سنة 726هـ/ 1326م.[42]

كما يذكر أنّ هذا الإمبراطور كان صديقا للفنون، ونحن نعلم بأن ولعه بالفن هو ماجعله يتقرب من المهندس الساحلي، ويصرّ على جلبه إلى بلاده. ومن الشواهد التي استندت إليها الأستاذة في نفي الأثر المغربي في العمارة السودانية كلام موريس دولافوس، لكننا نجدها هنا تتناقض مع ما ذهبت إليه، فهي تقول إنّ دولافوس قد أشار إلى أن منسا موسى هو الذي طلب من الساحلي إدخال النموذج السوداني إلى العمارة السودانية وأنّ الساحلي استوحى تفاصيلها من النموذج المغربي.[43]

وبذلك يمكن أن نستنتج بأنّ ما ذهبت إليه الأستاذة سوزان أراديون لا يقوم على أية أسس علمية، ويبقى مجرد أحكام مسبقة خاطئة وتفنيد لأحداث تاريخية أكدتها كل المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية.[44] فالمصادر العربية لم تنكر وجود عمارة سودانية، لكنها تعترف ببساطتها وفقدانها إلى الرقي الذي وصلت إليه

العمارة المغربية، وما إصرار منسا موسى على جلب المهندس الغرناطي إلى بلده إلا لمهمة البناء.

صحيح أنّ البناء الأول الذي قام به أبو إسحاق الساحلي والمتمثل في مسجد مدينة غاو كان باقتراح من الأمير الموحدي ، لكن البنايات الأخرى التي أقامها في كل من تمبكتو ونياني كانت بطلب من منسا موسى وهو ما يعني افتقاد مالي لمن يتقن هذا الفن. كما أن انبهاره بالانجاز الذي قام به الساحلي من خلال بنائه لتلك القبة المربعة بقصره في نياني، والسخاء الذي أبداه في مكافأته عليه لدليل على عدم وجود عمارة في مالي بذلك الرقي والإتقان، خاصة وأن ابن خلدون قد أكد ذلك بقوله:" لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل".[45]

خاتمة:

ويبقى ما قام به منسا موسى من إنجازات عمرانية وفنية وأدبية وأخرى، هي التي رفعت إمبراطورية مالي عاليا في سماء الإمبراطوريات خلال العصور الوسطى الإسلامية ، فقد كان دوره في عظمة إمبراطورية المندي مشهودا، ويكفينا دليلا على ذلك أن الأوربيين لم يعرفوا هذه الإمبراطورية إلا عن طريق منسا موسى من خلال الخريطة التي رسمها الجغرافي الإسباني مابا موندو كاتالان (Mappa mondo Catalan) سنة 1375م، حيث ظهرت فيها صورة منسا موسى جالسا، وتظهر فيها مدينة تمبكتو تحت اسم (تيمبوشت) فاشتهرت إمبراطورية مالي في أوربا. [46] كما استطاع منسا موسى كيتا أن يجد لإمبراطورية أجداده مكانا في أحداث إفريقيا الغربية، وشغلت قصصه وأعماله قصور المغرب والمشرق الإسلاميين.

(1) Djibril Temsir Niane : Recherches sur l'empire du mali au moyen âge, mémoire de l'institut national de recherche, Conakry, 1962 , p53.

(2)شهاب الدين العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: عزة أحمد عباس،ط1، أبو ظبي ، المجمع الثقافي،2002م،ص 115.

(3) محمد ابن بطوطة: تحفة النظار و غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،دار صادر،بيروت ، لبنان،1992م،ص 686.

(4)طائفة الجيلي هي طائفة الرواة الشفويين الذين يروون تاريخ و أمجاد المملكة و ملوكها و بطولاتهم ؛حيث يرتلون تلك الملاحم في المناسبات الرسمية و الاحتفالات.

(5) Djibril Temsir Niane: Le soudan occidental au temps des grands empires. Présence Africaine, Paris, 1975, p219.

(6)تقول الروايات الشفوية بأن هناك امرأة ساحرة كانت تعزف بهذه الآلة عند كل فجر بالقرب من هذا الكهف، وأنها كانت تؤثر في المحارب الذي حاول أن يملكها وهو تيراماغان، فذهب للبحث عن أصدقائه وهم ثلاث ، أشهر الرواة الشفويين في مندي بالإضافة إلى ثلاثة صيادين من كوني، فتوجهوا معه للقبض على هذه المرأة الساحرة التي تزوجها فيما بعد تيراماغان وأعطى لأحد أصدقائه الرواة وهو"جيليمالي أولي دياباتي" الآلة الموسيقية ، وهذا الأخير نقلها لابنه كانبا(Kanba) و منه انتقلت إلى الرواة الآخرين.

(7) Niane djibril Temsir :Le soudan occidental, au temps des grandes empires ,Op.Cit, p219.

(8)محمد ابن بطوطة: المصدر السابق،ص ص 684-686.

(9)عبد القادر زبادية: الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربي جنوب الصحراء،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 52.

(10) Raymond Mauny :Les siècles obscurs de l'Afrique noire. Librairie Fayard, 1970, p160.

(11)محمد فاضل باري، كريدية سعيد إبراهيم: المسلمون في غرب إفريقيا ، تاريخ وحضارة،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007م، ص 98 .

(12)هو أبو إسحاق إبراهيم الغرناطي بن الفقيه الفرضي محمد الأنصاري الأوسي الغرناطي، المعروف بالساحلي والطويجن، وهو من أهل غرناطة من بيت صلاح وثروة وأمانة، كان أبوه أمين العطارين بغرناطة، وكان من أهل العلم فقيها متفننا ، كان في صغره موثقا بسماط شهود غرناطة، وجال ببلاد المغرب، ثم قدم القاهرة ودخل الشام والعراق، ودخل اليمن والحجاز، وعاد إلى مصر، ثم سار إلى بلاد السودان واستوطنها زمنا طويلا، بلغ فيها أقصى المكانة والحظوة والشهرة والجلالة. ينظر:ابن حجر العسقلاني:الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت،لبنان، 1993م، ج1،ص211. كما يذكر دولافوس بأنه توفي بتمبكتو خلال فترة حكم منسا سليمان سنة 1346م .ينظر:

Maurice Delafosse- Haut sénégal-Niger.Emile Larosz librairie Editeur, Paris, 1912,t2,p190.

(13) أبو العباس الناصري السلاوي: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق و تعليق: جعفر ومحمد الناصري ،مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، المملكة المغربية،1954م، ج2، ص ص74 -75 .

(14)عبد الرحمان ابن خلدون ، كتاب العبر. مراجعة :سهيل زكار، دار الفكر ، بيروت، لبنان، 2000م ، ج6، ص 267 .

(15)ذكر العمري بأن مدينة نياني كانت مبنية وسقوفها بالأخشاب والقصب وغالب سقوفها قباب أو جلمونات كالقباب، وأرضها تراب مرمل. ينظر: المصدر السابق، ص111.

(16) نعيم قداح: حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية،الشركة الوطنية للطباعة والنشر، الجزائر، طبعة ثانية، 1975م، ص 112.

(17) Maurice Delafosse et Bernard Mouralis: Les Nègres. Editions l'harmattan, Paris, 2005, pp 22 et23 _ Maurice Delafosse : Haut Sénégal-Niger, tome2, p189.

(18) John Igué Ogunsolo : Les villes précoloniales d'Afrique noire. Editions Karthala, Paris, 2008, p36.

(19)ابن خلدون:المصدر السابق، ج6 ، ص 268 .

(20)صالح بن قربة: المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص ص 99- 100.

(21)عبد الرحمان السعدي:تاريخ السودان.طبعة هوداس، باريس،1964، ص ص 20 -21 .

(22) Robert et Marianne Cornevin :Histoire de l'Afrique (des origines à La deuxième guerre mondiale.4ème édition, Petite Bibliothèque Payot,Paris, 1964,p164.

(23)عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 87 .

(24)يذكر عبد الرحمان السعدي بأنه لما قام الفقيه القاضي العاقب بن القاضي محمود بتجديد المسجد الكبير بين سنتي 991 و 995هـ/1583 و1587م وبنا مكانه مسجدا آخر، خرب جميع تلك القبور وسواها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة صيّر الجميع مسجدا، وزادها زيادة كبيرة.ينظر: تاريخ السودان،المصدر السابق، ص 56.

(25) Robert et Mariane Cornevin:Op.Cit, p164.

ويذكر الظابط الفرنسي فيليكس دوبوا(Felix Dubois) الذي زار تمبكتو سنة 1896م بأنه رغم أن مساحة هذا المسجد ازدادت واتسعت خلال القرن العاشر للهجرة/16م مع تزايد عدد سكان تمبكتو إلا أنه لا يمكن وصفها بالعمل الفني الكبير، إذ هي مجرد أسوار متفاوتة الطول والعرض والارتفاع ولا ترقى إلى مستوى حتى تلك القبور والأضرحة التي أنشئت بجوارها والتي تتميز بانسجام كبير تذكرنا بجمال التزيينات التي بني بها جامع جني القديم.ينظر:

Felix Dubois:Timbuctoo the mysterious. Translated from the frensh by : Diana White, New York, 1896, p275.

(26) John-Igué Ogunsolo :Les villes précoloniales d'Afrique noire. Editions Karthala, Paris, 2008, p41.

(27) Felix Dybois:Op.cit,p275.

(28) Mahmoud Kati :Tarikh el fettach. Traduit par: O. Hodas et Maurice Delafosse .Paris, 1913, p56

(29) Djibril temsir Niane:Op.cit, Le soudan occidental, p134.

(30)يعتقد الأستاذ عبد القادر زبادية بأن معلوم إدريس هذا كان أحد مساعدي الساحلي.ينظر: مملكة سنغاي في عهد الاسقيين ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971، ص 107.

(31)تأسست سنة 435هـ/1033م ، ويسميها التجار الأفارقة جنة ، وتقع على مسافة 60كم إلى الجنوب الغربي من تمبكتو، وكانت مركزا للتجار المغاربة والعلماء العرب. ينظر: حسن الوزان: وصف إفريقيا ، ترجمة: محمد حجي، محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الاسلامي، لبنان، ج2، ص162.

(32) Djibril temsir Niane : Le soudan occidental:Op.cit, p130.

(33)قداح نعيم: حضارة الاسلام وحضارة أوربا في افريقيا الغربية،ط2،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1975،ص147 .

(34) محمد بن بطوطة:المصدر السابق، ص 690 .

(35)البريد هو وحدة قياس قديمة لقياس المسافة تقدر بـ 23كيلومترا .

Raymond Mauny: Les siècles obscurs de l'Afrique noire. Librairie Fayard1970, p160

(36)قداح نعيم:المرجع السابق، ص 150 .

(37) Maurice Delafosse et Bernard Mouralis: Les Nègres:Op.cit p23.

(38) Spencer Trimingham : The history of Islam in west Africa. Oxford university press, London, 1963 , p69.

(39) Suzan B.Aradeon: Al-Sahili (The historians Myth. of architectural technology tranfer from North Africa). In Journal des Africanistes. Anneé1989, Volume 59, N°01, p 99.

(40) Charles Monteil: Les empires du Mali, p86.

(41) Henri Barth : Voyage en Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 a. Traduction de l'Almand par : Paul Ithier. Edité par : A. Bohné, librairie Paris, et A. Lacroix, Bruxelles, 1861, tome4, 1855 pp14- 15.

(42)عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص ص86-87.

(43) Suzan B.Aradeon: Op.cit. pp99, 100.

(44) Michel Raimbault et Songo Kléna: Recherches archéologiques au Mali. Éditions Karthala, Paris, 1991,p130.

(45)ابن خلدون:المصدر السابق، ج6 ، ص 268 .

(46) Henri Barth :Op.Cit, p15

.Yoro.K.Fall:L'Afrique à lanaissance delacatographie moderne. Edition Karthala, 1982, p184.